الرافعي والشعر

بدأ الرافعي شاعرا وانتهى كاتبا ، وقد خطر بباله كما يقول د. مصطفى الشكعة[1] أن يكون ذات يوم أميراً على الشعراء بل إنه كان في يوم ما شاعر الملك[2] ثم غضب لكرامته حينما تصور أن تصرفا ما صدر عن ناظر الخاصة الملكية في حقه قد مس كبرياءه فأسمع رجل القصر الكبير ما لم يكن يتوقعه من مواطن متواضع الحال كمصطفى صادق الرافعي، وكان طبيعيا أن يحرم من لقب «شاعر الملك». وقد تعرض الرافعي لكثير من المضايقات في حياته، وتصدى لها وهو لا يحتاج إلى من يدافع عنه.

للرافعي شعر معروف وأناشيد رائعة تشهد بشاعريته، ومنها:

حماة الحمى يا حماة الحمى
هلموا هلموا لمجد الزمن
فقد صرخت في العروق الدما
نموت نموت ويحيا الوطن[3]

تفتحت موهبة الرافعي مبكرة وصقلها بالقراءة الثرية العميقة. لقد اهتم الرافعي باللغة العربية اهتماما كبيرا فحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وحفظ قدرا كبيرا من شعر القدامى وخطب العرب ومحاوراتهم.

نظم الرافعي الشعر في أغراض مختلفة تقليدية وحديثة ، فتناول القضايا الوطنية والقومية والاجتماعية ، فتحدث عن قضية الشرق والغرب والفرق بينهما في الثقافة والعادات والتقاليد في ذلك الوقت ، كما تحدث عن قضية تعليم المرأة الشرقية ودورها في المجتمع، كما نظم الشعر في الإخوانيات من مدح ورثاء وتهنئة.

لقد أولى الرافعي الشباب اهتماما كبيرا فخصص عددا من القصائد في الجزء الأول من ديوانه المعنون باسمه ، رسم فيها لهم طريق النجاح بالتمسك بالمبادئ التالية : التمسك بدينهم وتعاليمه القويمة، وملء القلوب بحب الله، والاعتماد على النفس. وقد اتضح ذلك كله في قصائده الموجهة للشباب ومنها:

لا زينة المرء تعليه ولا المال
ولا يشرفه عم ولا خال
وإنما يتسامى للعلا رجل
ماضي العزيمة لا تثنيه أهوال[4]

وقال أيضا:

وعـزز العلم فـاعـتـز الأنام به
وما إلى العز غير العلم من سبب[٥]

أمـا قـصـائد المديح فنراه يمهـد لهـا الرافـعي بأبيـات في الغـزل، ثم بعـد ذلك ينتقل إلى مدح الشخصية ، وهـو انتقال سلس لا يشعـر المتلقي فيه بقلق وهو في مدحه يركز على صفاته الخلقية والعلمية وما قدمه للمجتمع من أعمال ذات فائدة ، فـهذه الصـفات هي التي تجعل الإنسـان عند الرافـعي يسـتـحق المدح ، كـمـا نرى الرافعي ينأى بشعره عن المبالغة والنفاق فيقول في مدح الخديوي عباس:

على أنك اسـتـغنيت عن كل مـادح
بـآثارك الـغـــرا وأيـامك الـغـــر
وأوحيت لي ذا الشعر حتى كأنما
لقطت نفيس الدر من ساحل البحر[٦]

ونظم الرافـعي أيضـا في الرثاء ، فـرثى الأمـيـر عبدالرحمن أمير أفغانستان ، ورثى عمه عبدالقادر الرافعي ، والشيخ محمد عبده ، ولكن قصائد الرثاء هذه قليلة في الديوان، وتعتبر قصائد الرثاء متطورة فنيا حيث نجد الرافعي يتخلص من الرثاء التقليدي الذي يذكر مآثر المرثي مسبوقة بالفعل «كان» كما كان حريصا على الصورة الشعرية حتى يبعد عن التقريرية المباشرة .

ففي رثاء الأمير عبدالرحمن أمير أفغانستان يقول:

يا فاجع الموت ماذا ينفع الحذر
وقـد عـهـدناك لا تبـقي ولا تذر
جنت أناملك الأرواح فانتثرت
كـمـا تناثر من أوراقـه الزهر[٧]

وفي رثاء عمه الشيخ عبدالقادر الرافعي يقول:

الدهر طرس ونحن الأحرف السود
والموت آخـره والعـمـر تمهـيـد
وذي الليـالي بلاغـات مـعـبـرة
جناسـهن الأمـاني والمواعـيـد[٨]

بقلم : إبراهيم سعفان
مصر

وعن ضـعف الشـرق يقـول الأبيـات التالية متسائلا عن أسباب ضعف العـرب والمسلمين وتدهورهم ، وكـيف نصل إلى هذا الحال ونحن أمـة العلم والحـضـارة والرجـال الذين أضـاؤوا الأرض بعلمهم:

لقـد أشـرق العلم من شـرقنا
ومـا زال يضـؤل حـتـى (غـربْ)
وكنا صـعـدنا مـراقي المعـالي
فـأصـبح صـاعـدنا في صـببْ
وكم كـــان منا ذوو همـــة
سـمت بهـم لمعالـي الرتـبْ
وكم من هزيز تهـز البـرايا
بـــوادره إن ونى أو وثـبْ[٩]

ثم يختم القصـيدة متسائلا هل نتكاسل حتى نضيع ما تبقى من أمجادنا ؟ أم نعمل بجد ونشاط لبنائه من جـديد ، ثم يبين أننا إن توانينا في أداء واجبنا فسنكون سبة في جبين الزمان فيقول:

فـهل نضيع مـا أبقى الزمان لنا
وننفض الكف لا مـجـد ولا حـسبُ
إنا إذا سبة في الشرق فاضحة
والشـــرق منا وإن كنا به خـــربُ
هيهات ينفعنا هذا الصياح فما
يجدي الجبان إذا روعته الصخبُ
ومن يكن عاجزا عن دفع نائبة
فـقـصـر ذلك أن تلقاه يحـتـسبُ[١٠]

أما بالنسبة للمرأة فقد طالب بتعليمها ما يناسبها ويفيدها في أداء دورها في البيت ، فيقول مبينا الفرق بين المرأة الشرقية والغربية:

للحـســان الدلال والخـيـلاءُ
ولك الأمـــر بعـــد يا حـــسناءُ
كل بدر لـه ســمـــاء ولا يعـــر
ف للحـسن كـالبـيـوت ســمـاءُ
لا تغـرنك من تزين من العـجـ
ـم فـما الشـرق والشـمـال سواءُ[١١]

*** الجوانب الفنية:**

يرى الرافعي أن الشعر ينبني على الأسس التالية:

١- الموهبة

٢ - الفكر الذي يبرزه البيان الناصع

٣ - الصدق، لأن ما صدر من القلب يصل إلى القلب

٤ - التأثير في المتلقي

ويبين أيضا صفات الشاعر الحقيقي المطبوع ، والفرق بينه وبين الشاعر غير الحقيقي.

فالشاعر الحقيقي هو الذي يصدر كلامه من القلب فيصل إلى القلب وألا يكون كلامه خارجا من اللسان فلا يتجاوز الآذان ، أما الشاعر غير المطبوع فهو يفتقد إلى الموهبة الحقيقية فيأتي شعره متكلفا لأنه كما يقول الرافعي « كالأعمى يتناول الأشياء ليقرها في مواضعها وربما وضع الشيء الواحد في موضعين أو مواضع وهو لا يدري»(١٢).

لقد طبق الرافعي آراءه هذه في نقده للمبدعين، فهل طبقها على نفسه؟

من العرض التحليلي الذي قدمته والذي حرصت فيه على تقديم نماذج متعددة من شعر الرافعي، وذلك ليكون بين يدي القراء ليتمكنوا من الإلمام بصورة واضحة عن شعره، ويمكن القول أن الرافعي التزم بالمقاييس النقدية التي ذكرها.

فشعره يتسم بالسمات التالية:

١- تميز شعره بالسلاسة والعذوبة والصدق ونصاعة البيان ، والوضوح الفني الذي يتصف بالشفافية.

٢ - نظم الرافعي القصائد الطويلة التي تبلغ أكثر من ثلاثين بيتا ، في وحدة محبوكة تنتظم القصيدة كلها دون خلل فني.

٣ - اهتم الرافعي بالتركيز والتكثيف، كما أجرى في القصيدة أبياتا مجرى الحكمة والمثل، والرافعي شاعر مطبوع ، وقد مكنه هذا من قول الشعر ارتجالا.

٤ - اهتم الرافعي بالصورة الشعرية التي تدل على رقة إحساسه وشفافيته ، كما اهتم بالصور الشعرية الجديدة مثل:

*** والناس في الدنيا دلاء فذا**
يهوي إلى القاع وذا يرتقي

*** والماء الين شيء لكنه لا يداس**

*** وإنما الأرض جيد والقبور حولها**
عقد ومثلك در فيه منضود

*** فأغروا به «الخزان» حتى خلته**
وصيا يريه كيف ينفق بالقدر

٥ - ضمن الرافعي شعره بعض الأمثلة الشعبية مثل:

«فما جهينة إلا عندها الخبر».

كما استوحى آيات القرآن الكريم في مثل قوله:

فإن كان هذا بحكم الزمان
فتبت يدا ذا الزمان وتب

كتابات مصطفى صادق الرافعي النثرية والشعرية تنطلق من قلب مؤمن عامر بحب الله ، كتابات ملتزمة بالتعاليم الإسلامية، تحافظ على حياء المتلقي ومشاعره. إنها نموذج للأدب الإسلامي الصحيح الذي يدعو إلى الخير والحق والجمال بأداء فني متميز. ■

الهوامش:

(١) كتاب «مصطفى صاق الرافعي كاتبا عربيا، ص٢٥ .
(٢) المصدر السابق : ص ٢٦ .
(٣) المصدر السابق : ص ٢٦ .
(٤ ديوان الرافعي ، جـ١ ، ص١٤ .
(٥ المصدر السابق : جـ١ ، ص ١٤ .
(٦) المصدر السابق : جـ١ ، ص ٣٠ .
(٧) المصدر السابق : جـ٣ ، ص ١٤٢ .
(٨) المصدر السابق : جـ١ ، ص ١٤٧ .
(٩) المصدر السابق : جـ١ ، ص ٢٦ .
(١٠) المصدر السابق : جـ١ ، ص ٢٦ .
(١١) المصدر السابق :جـ٢ ، ص ٤٦ .
(١٢) من وحي القلم ، ج٣ ، طبعة الهيئة العامة للكتاب.

الكتاب : مصطفى صادق الرافعي " كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً "

تأليف : دكتور مصطفى الشكعة

الناشر : الدار المصرية اللبنانية

الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

عرض : محمود حسين عيسى

جاء الكتاب في ستة فصول هي :

الفصل الأول : وعنوانه " **الرافعي نشأة وثقافة وزماناً**" وفيه تحدث المؤلف عن نشأة الرافعي وثقافته ، ومذاهبه الأدبية التي مزج بينها وبين اللغة العربية ، حيث نمت الملكة الأدبية عند الرافعي مبكرة خصبة في نطاق الشعر ، وقد عمد إلى إثراء معلوماته اللغوية بحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وحفظ أكبر قدر من شعر القدامى والمحدثين وخطب العرب ومحاوراتهم في الجاهلية ، ودررهم الخطابية في الإسلام .

وتحدث المؤلف عن أفكار الرافعي الاجتماعية، ثم انتقل للحديث عن شعره وكيف أنه طرق أبواب الشعر المختلفة من تقليدية ومحدثة . كما يبين المؤلف موقفه من خلال تصديه لدعوات العامية والفرعونية والإلحاد ومحاربة الفكرة الإسلامية .

الفصل الثاني : وعنوانه " **آداب العرب وإعجاز القرآن** " وفي هذا يقول المؤلف : لعل الرافعي لم يكتب كتابه " تاريخ آداب العرب " إلا مستجيباً لدعاء نفسه في خدمة اللغة العربية ، لغة القرآن ، فأراد أن يميط اللثام عن الخبء من جمالها والخالد من آثارها . وكان هذا في الجزء الأول من الكتاب . أما الجزء الثاني فقد اختصه الرافعي بـ " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " حيث يصف المؤلف " الرافعي " بأنه كان في إيمانه صادقاً مع ربه ، صادقاً مع نفسه ، صادقاً مع مجتمعه ، وكان هذا الإيمان قوة دافعة له في الذود عن حياض كتاب الله والتعلق الشديد بكلام رسول الله ﷺ حباً ودراسة . ويذكر المؤلف كيف فجر ظهور هذا الكتاب طاقة دينية كبرى في المجتمع ، وكيف استقبله المؤمنون بالبهجة والثناء ، واستقبله المنكرون بالصمت المغلف بالغيظ المتأجج والحقد الدفين .

وقد كان عنوان **الفصل الثالث** : " **معركة النقد المقدس .. تحت راية القرآن أو المعركة بين القديم والجديد** " ويبين المؤلف هنا طبيعة كتاب " تحت راية القرآن " والهدف منه ، واشتمال الكتاب على ثلاث مراحل : الأولى حملة الرافعي على أصحاب الجديد بعامة ، ونظرته إليه، وتصويره لهم ، والحديث عن الذوق الأدبي . والثانية تتصل بآراء طه حسين حول الشعر الديني في الجاهلية واتهام المسلمين بمحوه وإسقاطه ، وقد ندد الرافعي وأصحابه بهذا الرأي في ضوء المنهج العلمي والتاريخي . والثالثة الرد على آراء طه حسين في كتابه " الشعر الجاهلي " تلك المرحلة التي زعزعت كرسي الأدب العربي تحت صاحبه .

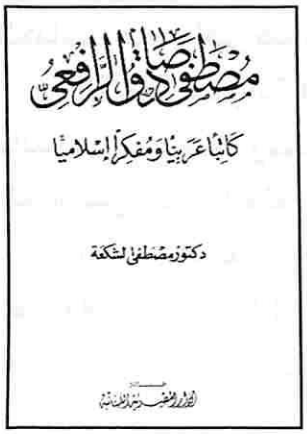

أما **الفصل الرابع** : فقد كان عنوانه "**المقالة الإسلامية**" ويبين المؤلف في هذا الفصل " المضمون الإسلامي في المقالة الرافعية " من خلال مقالات الرافعي عن : طبيعة النبي ﷺ ، شخصية الرسول ، سموّ الفقر عند الرسول ، معجزة الإسراء والمعراج ،عبرة الهجرة . ثم المقالات الخاصة بأدب السياسة الإسلامية ، يتبعها بالمقالات الخاصة بأدب المحاجة والجدل ثم المقالات الخاصة بأدب العقيدة ويذكر المؤلف منها : الجمال الفني في بلاغة الرسول ، حقيقة المسلم مستمدة من فلسفة الإسلام وفرائضه .. وغيرها .

وفي **الفصل الخامس** وعنوانه : " **كتاب المساكين** " يعلق المؤلف على هذا الكتاب قائلاً : إن "كتاب المساكين" من خلال النهج الذي قدمه الرافعي – فكرة وهدفاً وصياغةً – يعدّ بمعايير النقد المحايد حلقة جديدة في سلسلة الإنجازات الإبداعية التي واكبت عصر الرواد القلميين الذين ينتظم الرافعي قافلتهم ، ولكنه استطاع أن ينفرد بينهم بأسلوبه المشرق المكين ، وجملته العربية الأصيلة ، وعبارته الغنية بأسباب من الترف الذي جعل منه سمةً ومذهباً ، ويتوج الرافعي ذلك كله بالروح الإسلامية التي تتضوع بالأريج في كل صفحة سطرها يراعه ، وفي كل مقالة دبجتها بنانه .

وهكذا نصل إلى **الفصل السادس** : " **الأثر الإسلامي للرافعي في أدباء عصره** "، وفيه يقرر المؤلف أن الرافعي بريادته للكتابة في ظل الفكرة الإسلامية كان هادياً لمعاصريه من الكتّاب الذين قدر لهم بسطة في العمر من بعده ، وكانوا خصوماً للإسلاميات ظاهراً أو باطناً . ■

الكتاب : مصطفى صادق الرافعي " فارس القلم تحت راية القرآن "
تأليف : د . محمد رجب البيومي
الناشر : دار القلم ، دمشق ، سلسلة أعلام المسلمين (٦٥)
الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، ١٩٧٧م .
عرض : عبدالرزاق ديار بكرلي

يؤرخ هذا الكتاب لعلم العربية مصطفى صادق الرافعي، حياة، وأدبا، ويدرس نتاجه، ويحلل مواقفه، ويفصل في نزاعاته، ويرد الأمور إلى أسبابها ومسبباتها، ويضع المواقف في إطارها التاريخي وتسلسلها المنطقي، وبذا يصحح الكثير من المفاهيم الخاطئة، ويزيل اللبس، وينصف الأديب الرافعي أيما إنصاف . واشتمل الكتاب على الموضوعات الآتية:

هذا الرجل، المقدمة، تمهيد موجز، نشأة كريمة، الكاتب البليغ :

تدور حول حياته ونشأته، وبواكير أعماله الأدبية والظروف والملابسات التي أسهمت في تشكيل أدبه وبلاغته.

محمد ﷺ:

عنوان موضوع تحدث فيه عن النبي ﷺ بأسلوب غاية في البراعة، عن نبوته، وسيرته، ويوم الطائف، والإسراء، الأذان، مقتبسا حول كل ذلك فقرات من أقواله البديعة.

تاريخ الأدب العربي :

أورد فيه المؤلف قصة كتابة الرافعي عن الأدب العربي مؤرخا والظروف التي دفعته إلى هذه الكتابة والجوانب التي تميز بها تأريخه آخذا عليه عدم التقيد بذكر المصادر التي رجع إليها في كتابه.

إعجاز القرآن الكريم:

تحدث فيه عن كتابه الذي خصصه للحديث عن إعجاز القرآن وتفرده عن سابقيه والحفاوة التي قوبل بها هذا الكتاب .

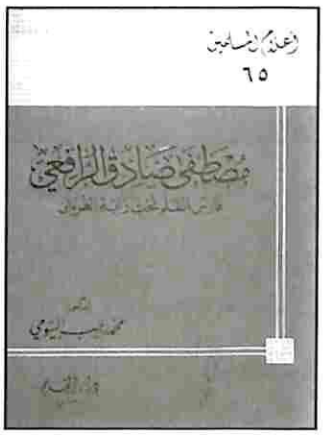

البلاغة النبوية:

وتحدث فيه عن بلاغة النبي ﷺ مستخلصا سمات هذه البلاغة من الخلوص والقصد والاستيفاء .

ثم يقول: «ولاجتماع تلك الثلاثة في كلامه ﷺ وبناء بعضها على بعض سلم هذا الكلام العظيم من التعقيد والعي والخطأ والانتشار، وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول البلاغة ».

الاستشفاف الذوقي في فهم القرآن والحديث:

تحدث فيه عن تفسير القرآن وشرح الحديث، حيث يقول : «طريقنا في اكتناه إعجاز القرآن أن الكلمة الواحدة من كلماته لها جهات عدة، فالبحث في فهم القرآن يجب أن يكون في اللفظة ووجه اختيارها وسياق تركيبها وما تدل عليه في كل ذلك وما يدل كل ذلك بها» .

في حومة الدفاع:

يبرز المؤلف هنا كيف أن الرافعي لم يكن مهاجما بادئ ذي بدء، ولكنه التزم الفريضة في دفع المنكر والأمر بالمعروف، وكانت المسألة بالنسبة إليه فرض عين، رادا عن مفاهيم الرجعي والتقدمي، مدافعا عن الرابطة الدينية، وعن الشرق، وعن اللغة العربية، مهاجما الدعوة إلى اللغة العامية واللغة الأجنبية.

عن الشعائر الدينية :

تحدث الرافعي عن الأذان في أروع مظاهر تأثيره، وتأثير كلمة «الله أكبر»، وحديث المسجد، والقيام في الصلاة، وتولي شطر القبلة، والركوع والسجود بين يدي الله، والتسليم الذي يخرج به من الصلاة، والزكاة والصوم والتقوى .

عن علماء الإسلام :

يتحدث فيه عما كتبه الرافعي في سلسلة أدبية عن كبار العلماء ممن جابهوا السلطان الظالم في غير هوادة، من مثل : سعيد بن المسيب، والشعبي، ومالك ابن دينار، وأحمد بن حنبل، والحسن البصري، والعز ابن عبدالسلام، وغيرهم من أفذاذ العلماء، حيث ولدت القصة الإسلامية على يد الرافعي فيما صور من أحداث ورسم من شخصيات.

فللرافعي مفهوم خاص في كتابة القصة لا يتقيد فيه بما تعورف عليه من خطوات العمل القصصي، ولكنه يذكر الحادثة في ثوب القصة، ثم يفتح بابا للتحليل الأدبي، والتفسير النفسي يكشف عن مدلول هذه الأحداث . ولم يقل الرافعي للقارئ إنه يكتب قصة أدبية حتى نحاكمه في ضوء ما نعرف من أساليب التأليف القصصي، ولكنه يخاطب القراء بما يراه مجالا للتأثير في شعوره النفسي، تاركا لقلمه أن يجمع المقالة والقصة في ثوب واحد .

عن المرأة:

لقد دافع الرافعي عن المرأة دفاعا شرعيا منصفا، لا كغيره ممن أرادوا من خلال دعوى الدفاع عنها أن تنزلق إلى الفساد وحمأة الرذيلة تحت دعوى التحرر والانفتاح .

وهنا يرد الحديث عن كتبه أوراق الورد، ورسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وغيرها من مقالات في هذا الشأن .

مع العقاد:

هذه هي المشكلة الكبرى التي استطاع المؤلف أن يضع مبضعه في مفصل النزاع بين الرجلين حاكما بينهما، ملطفا الجو في خلافاتهما، راداً الأمور إلى أسبابها ومسبباتها معللا إياها بأسلوب منطقي حصيف، وليس «على السفود» من ذلك ببعيد .

يقول البيومي : وقد لحق العقاد بالرافعي بعد قرابة ربع قرن فغاب عن الميدان فارسان مدججان تحدث بآثارهما الركبان حديثا ما زال يمتد صداه .

تحت راية القرآن:

هذا الموضوع امتداد للموضوعات السابقة في دفاع الرافعي عن القرآن الكريم حينما تورط طه حسين فيما قاله عن القرآن الكريم في كتابه «الشعر الجاهلي» حيث تصدى له الرافعي وفند مزاعمه الخطيرة .

الرافعي كاتب الوجدان :

تميزت كتابات الرافعي بتحريك العواطف النبيلة والمشاعر الفياضة فهو في ذلك فرد لا نظير له، وانظر ذلك في حديثه عن القلب الطاهر، وحديث القمر، ورسائل الأحزان، وأوراق الورد، والسحاب الأحمر، إلى أن يقول الكاتب عن كتاب المساكين : «إنه من الأدب الوجداني من ناحية تأثر العاطفة وانفعالها بمظاهر الفقر المحتشم والصبر القانع والوثوق المطمئن .. وكل ذلك يتجلى في مسيرة قروي هادئ قانع..».

الشاعر الموهوب :

وللرافعي شعر في غاية الإبداع والتألق، ومنه الشعر الوصفي والاجتماعي والتقريري التعبيري، ممزوجا بالخيال والإدراك المتيقظ الذي هو أول منافذ الخيال.

أما نثر الرافعي فهو النثر الفني الذي يحلق في القارئ بعيدا في مجال الخيال والفكر في آن واحد.

الرافعي ناقدا:

يقول الدكتورالبيومي : لا أقول: إن النقد كان أبرز ميزات الرافعي، بل أقول: إنه كان أثرا قيما من آثاره وله وزنه في تقدير كفاحه الأدبي الطويل.

الرسائل الخاصة وجهة إسلامية:

تحدث فيه الكاتب عما كتب من الرسائل الخاصة التي ينشرها الآخرون لأدباء استأمنوهم عليها .. وهنا يأتي ذكر «أبي رية» فيما نشر من الرسائل الخاصة للرافعي، ويرى الكاتب أن الرسائل التي تحمل بعض الشطط أولى بالكتمان والصون الخلقي، وإن كان النشر ضروريا في رأي من يبيحه فإن الواجب أن يبعد عن الرسائل ما يشي بنقيصة أو ينبئ بتهجم على إنسان مناوئ .. بما يحفظ لصاحب الرسائل أسراره الخاصة.■